وغريزة الجنس أرادها الله لإبقاء النوع ، ولتأتى بالأولاد والذرية ، لكن لا تستعملها كانطلاقات وحشية . وهكذا يحرس المنهجُ الغرائزَ والعواطفَ لتبقى فى إطار مهمتها .

والعاطفة ـ على سبيل المثال ـ هى التى تجعل الأب يَحنُو على ابنه الصغير ويرعاه ، وعلى ذلك فالمؤمن عليه أن يُعْلِى غرائزه وعواطفه .

وقول الحق سبحانه عن يعقوب :

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) ﴾ [يوسف]

أى : أنه أخذ النزوع على قَدْره . وكلمة « كظيم » مأخوذة من « كظمت القربة » أى : أحكمنا غَلْق فوهة القِرْبة ، بما يمنع تسرُّب الماء منها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ (١) تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا (٢) أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ (٨٥) ﴾

ولقائل أنْ يسأل : ومَن الذين قالوا ليعقوب ذلك ، وقد ذكرت الآية السابقة أنه تولَّى عنهم ؟

---

(١) فتأ وفَتِىء : زال وتحول . والمضارع تفتؤا . أى : مازلت . وإنما قالوا له ذلك ، لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك. [تفسير القرطبى ٥/ ٣٥٨٤] .

(٢) الحرض : الذى أذابه الحزن أو العشق ، الذى لا يقدر على النهوض . والحرض أيضاً : الذى أشرف على الهلاك . [لسان العرب ـ مادة : حرض] بتصرف كثير . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٨٥) : « أصل الحرض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم » .

نقول : لقد عاش يعقوب مع أبنائه وأحفاده ، ويُقال فى الأثر : إن يعقوب دخل عليه بعض الناس ، فقالوا له « تالله انهشمت يا يعقوب ، ولم تبلغ سنَّ أبيك إسحاق » .

والمعنى : أنك صرْت عجوزاً عاجزاً ، مهشماً . قال : إنما هشَّمنى يوسف . فعتب عليه الله فى هذه القَوْلة ، وأوضح له : أتشكو ربك لخلقه ؟ فرفع يده وقال : خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لى . قال : غفرتُها لك[1] .

وقد نبَّهه بعض أبنائه أو أحفاده فقالوا :

﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) ﴾ [يوسف]

أى : لا تزال تذكر يوسف وما حدث له ، حتى تُشرف على الهلاك . و « الحَرَض » كما نعلم هو المُشْرِف على الهلاك ، أو يهلك بالفعل .

وجاء الرد من يعقوب عليه السلام ، وأورده الحق سبحانه :

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤ /٥٧١) من قول طلحة بن مصرف الأيامى وعزاه لابن جرير الطبرى . قال طلحة : أنبئت أن يعقوب دخل عليه جار له فقال : يا يعقوب ، ما لى أراك قد انهشمت وفنيت ، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك ؟ قال : هشمنى وأفنانى ما ابتلانى الله به من همّ يوسف ، وذكره ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أتشكونى إلى خلقى ؟ فقال : يا رب ، خطيئة أخطأتها فاغفرها لى . قال : فإنى قد غفرت لك . فكان بعد ذلك إذا سُئل قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .. (٨٦) ﴾ [يوسف] .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي[1] وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وشكاية الأمر إلى الله لَوْن من العبادة لله ، والبَثُّ : هى المصيبة التى لا قُدرة لأحد على كتمانها ؛ فينشرها ، وإذا أصاب الأعلى الأدنى بما يراه الأدنى سوءً ، يتفرع الأدنى إلى نوعين : نوعٍ يتودد إلى الأقوى ، و يتعطفه ويلين له ، ويستغفره ويستميحه ، ونوع آخر يتأبى على المُبْتَلِى . ويتمرد ، ولسان حاله يقول : « فليفعل ما يريد ».

والحق تبارك وتعالى يقول فى كتابه :

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الانعام]

فساعةَ يأتى البأسُ ونتضرع إلى الله ؛ يكون البأس قد غسلنا من الذنوب ونسيان الذِّكْر ؛ وأعادنا إلى الله الذى لن يزيل البأس إلا هو .

أما الذى يتمرد ويستعلى على الأحداث ، فويل له من ذلك التمرد . والحق سبحانه حين يصيب إنساناً بمصيبة ، فهو يلطف بمَنْ يدعوه.

وتساءَل بعضهم : ولماذا لم يَقُلْ يعقوب ما علَّمنا إياه رسولنا ﷺ:

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[البقرة]

---

(١) حقيقة البث فى اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التى لا يتهيأ له أن يخفيها. قال الحسن : بثى : حاجتى . وقيل : أشد الحزن . [راجع : تفسير القرطبى ٣٥٨٦/٥] .

ونقـول : إن هذا من النعم التى اخـتصَّ بهـا الحق سـبحـانه أمـةَ محـمد ﷺ ؛ وحـين دخل بعـضـهم على علىّ بن أبى طالـب ـ كَرَّم الله وجهـه وأرضاه ـ وكـان يعانى من وَعْكة ، وكـان يتأوَّه ، فـقالوا له : يا أبا الحسن أتتوجَّع ؟ قال : أنا لا أشجع على الله .

وهنا فى الآية ـ التى نحن بصـدد خواطرنا عنهـا ـ يعلن يعـقوب عليـه السلام أنه لا يشكو حُـزْنه وهَمَّه إلا إلى الله ، فـهو القـادر على كشف الضُّرِّ ؛ لأن يعقـوب عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه أو أحفاده .

فقد كان يشعر بوجدانه ، وبما كان لديه من شكوك لحظة إبلاغهم له بحكاية الـذئب المكذوبة أن يوسف مـا زال حَـيـاً ، وأن الرُّؤيا التى حكى يوسف عنها لأبيه ، سوف يأذن الحق بتحقيقها .

ويذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان يعقوب فيقول :

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ(١) مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧ ﴾

ونلحظ أن الذيـن غـابوا هم ثلاثة : يوسف ، وبنـيـامـين ، والأخ

(١) تحسـس الشىء وتحسس منه : طلب مـعرفـته بالبحث الـدقيق عنه . قال تـعالى : ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ٨٧ ﴾ [يوسف] . أى : تتبعـوا أخبارهما وابحثـوا عنهما بعناية شديدة . [القاموس القويم ١/١٥٤] .

الأكبر الذى أصرَّ على ألاَّ يبرح مصر إلا بعد أن يأذنَ أبوه ، أو يأتى فرج من الله .

وهنا فى هذه الآية جاء ذكْر يوسف وأخيه ، ولم يَأْتِ ذكْر الأخ الكبير أو رئيس الرحلة . ونقول : إن يوسف وأخاه هما المعسكر الضعيف الذى عانى من مناهضة بقية الإخوة ، وهما قد فارقا الأب صغاراً ، أما الأخ الأكبر فيستطيع أن يحتال ، وأن يعود فى الوقت الذى يريد .

وقول يعقوب :

﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يوسف]

نجد فيه كلمة ﴿ تحسسوا ﴾ ، وهى من الحسِّ ، والحسُّ يُجمع على « حواس » ، والحواس هى منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية ، فالمعلومات تنشأ عندنا من الأمور المُحسَّة ، وتدركها حواسنا لتصير قضايا عقلية .

وهكذا نعلم أن الحواس هى قنواتُ المعرفة ، وهى غير مقصورة على الحواس الخمس الظاهرة ؛ بل اكتشف العلماء أن هناك حواسَّ أخرى غير ظاهرة ، وسبق أن تعرضنا لهذا الأمر فى مرَّات كثيرة سابقة .

وقوله :

﴿ فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يوسف]

يعنى أعملوا حواسكم ، بكل ما فيها من طاقة ، كى تصلوا إلى الحقيقة .

ونعلم أن كلمة « الجاسوس » قد أُطلِقَتْ على مَنْ يتنصَّتْ ويرى ويشُمُّ رائحة الأخبار والتحرُّكات عند معسكر الأعداء ؛ ويقال له « عين » أيضاً .

وفى عُرْفنا العام نقول لمن يحترف التقاط الأخبار « شَمْ شِمْ لنا على حكاية الأمر الفلانى » .

وتابع يعقوب القول :

﴿لَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ[1] اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف]

أى : إياكم أن تقولوا أننا ذهبنا وتعبنا وتحايلنا ؛ ولم نجد حلاً ، لأن الله موجود ، ولا يزال لله رحمة .

والأثر يقول : « لا كَرْبَ وأنت رَبٌّ » .

وما يَعزُّ عليك بقانونك الجأ فيه إلى الله .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ « أنه كلما حَزَبه أمر قام وصلى »[2] .

وبهذا لجأ إلى ربِّ الأسباب ، وسبحانه فوق كل الأسباب ، وجَرِّبوا ذلك فى أىِّ أمر يُعضلكم ، ولن ينتهى الواحد منكم إلى نهاية الصلاة إلا ويجد حَلاً لمَا أعضَلَه .

---

(١) الرَّوْح : الرحمة. سماها روحاً لأن الرَّوح والراحة بها. وقوله : ﴿ لا تيأسوا من رَّوْح الله .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف] أى : لا تقنطوا من فرج الله . قاله ابن زيد . يريد أن المؤمن يرجو فرج الله . [راجع : القرطبى فى تفسيره ٥/٣٥٨٧] و [لسان العرب - مادة : روح] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة ابن اليمان .

وكلمة « رَوْح » نجدها تُنطَق على طريقتين « رَوْح » و « رُوح »، و « الرَّوْح » هى الرائحة التى تهبُّ على الإنسان فيستروح بها ، مثلما يجلس إنسان فى يوم قَيْظ[1] ؛ ثم تهبُّ نسمة رقيقة ينتعش بها.

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) ﴾ [الواقعة]

ونأخذ لهذه الروح مثلاً من المُحسَّات حين يشتد القيظ ، ونجلس فى بستان ، وتهبُّ نسمة هواء ؛ فيتعطر الجو بما فى البستان من زهور .

والرُّوح[2] هى التى ينفخها الحقُّ سبحانه فى الجماد فيتحرك .

ويأتى هنا يعقوب عليه السلام بالقضية والمبدأ الذى يسير عليه كل مؤمن ، فيقول :

﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

لأن الذى ليس له رَبٌّ هو مَنْ ييأس ، ولذلك نجد نسبة المنتحرين بين الملاحدة كبيرة ، لكن المؤمن لا يفعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن له رباً يساعد عباده .

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب ؛ فسبحانه يَهبُه ممَّا فوق الأسباب .

(١) القيظ : صميم الصيف . واليوم القائظ : شديد الحر . [لسان العرب ـ مادة : قيظ] .

(٢) الروح بالضم : ما به حياة النفس . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ (٩) ﴾ [السجدة] . أى : من سر الحياة التى لا يخلقها إلا الله ، أى : بروح من الله لا من غيره ، بروح لا يملك نفخها فى الإنسان إلا الله . [القاموس القويم ١/ ٢٨٠] .

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق]

وهذه مسألة تحدث لمن يتقى الله . أتحدى أن يوجد مؤمن ليس فى حياته مثل هذه الأمور ، ما دام يأخذ بالأسباب ويتقى الله ، وسوف يجد فى لحظة من لحظات الكرب أن الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب ؛ لأن الله هو الرصيد النهائى للمؤمن .

وهَبْ أنك سائر فى الطريق ، وفى جيبك جنيه واحد ، وليس عندك غيره وضاع منك ؛ هل تحزن ؟ نعم سوف تحزن ، ولكن إنْ كان فى بيتك عشرة جنيهات فحزنك يكون خفيفاً لضياع الجنيه ، ولو كان رصيدك فى البنك ألف من الجنيهات ، فلن تحزن على الجنيه الذى ضاع .

ومَنْ له رَبٌّ ، يبذل الجَهْد فى الأخذ بالأسباب ؛ سيجد الحل والفرج من أىِّ كرب ممَّا هو فوق الأسباب .

ولماذا ييأس الإنسان ؟

إن المُلحد هو الذى ييأس ؛ لأنه لا يؤمن بإله ، ولو كان يؤمن بإله ، وهذا الإله لا يعلم بما فيه هذا الكافر من كَرْب ، أو هو إله يعلم ولا يساعد مَنْ يعبده ؛ إما عجزاً أو بُخْلاً ، فهو فى كل هذه الحالات ليس إلهاً ، ولا يستحق أن يُؤْمَن به .

أما المؤمن الحق فهو يعلم أنه يعبد إلهاً قادراً ، يعطي بالأسباب ، وبما فوق الأسباب ؛ وهو حين يمنع ؛ فهذا المَنْع هو عَيْنُ العطاء ؛ لأنه قد يأخذ ما يضره ولا ينفعه .

وينقلنا الحق سبحانه إلى نَقْلة أخرى ؛ وهي لحظة أنْ دخلوا على يوسف عليه السلام في مقرِّه بمصر ؛ ونقرأ قوله الحق :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ (١) فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾

ولم يذكر الحق سبحانه اسم مَنْ دخلوا عليه ، لأنه بطل القصة ، والضمير في « عليه » لا بُدَّ أنْ يعود إلى معلوم ، ونادوه بالتفخيم قائلين :

﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]

أي : أن الجوع صَيَّرنا إلى هُزَال ، وبدأوا بترقيق قلب مَنْ يسمعهم ؛ بعد تفخيمهم له ؛ فهو الأعلى وهُم الأدنى .

ويستمر قولهم :

---

(١) أي : ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره وهو ثمن قليل . قاله مجاهد والحسن وغير واحد . [ابن كثير ٤٨٨/٢] . وقال القرطبي (٣٥٨٨/٥) : « الإزجاء : السَّوْق بدفع والمعنى : أنها بضاعة تُدفع ، ولا يقبلها كل أحد » .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾ [يوسف]

ونعلم أنهم قد جاءوا ليتحسسوا أمر يوسف وأخيه ، وقد اختاروا مَدْخل الترقيق والتفخيم كَلَوْن من المكْر ، فالتفخيم بندائه بلقب العزيز ؛ أي : المالك المُتمكِّن ؛ ويعني هذا النداء أن ما سوف يطلبونه منه هو أمر في متناول سلطته .

والترقيق بشكوى الحال من جوع صار بهم إلى هُزال ، وأعلنوا قدومهم ومعهم بضائع مُزجاة ، أي : بضاعة تُستخدم كأثمان لِمَا سوف يأخذونه من سلَع .

وكلمة : ﴿ مُّزْجَاةٍ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]

أي : مدفوعة من الذي يشتري أو يبيع .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا[1] .. (٤٣) ﴾ [النور]

وكلمة « يزجي » بمعنى : يدفع .

إذن : فما معنى قول الحق سبحانه :

﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]

---

(١) الرُّكْم : جمعك شيئاً فوق شيء حتى تجعله رُكاماً مركوماً كركام الرمل والسحاب ونحو ذلك من الشيء المرتكم على بعضه . وارتكم الشيء وتراكم إذا اجتمع . [لسان العرب - مادة : ركم] .

ولكى تعرف المعنى بإحساسك ؛ جَرِّب هذا الأمر فى نفسك ، وراقب كيف تدفع ثمن أىِّ شىء تشتريه ؛ فإنْ كان معك نقود قديمة ونقود جديدة ؛ ستجد أنك تدفع قيمة ما تشتريه من النقود القديمة ؛ وسوف تجد نفسك مرتاحاً لاحتفاظك بالنقود الجديدة لنفسك .

وقد يقول لك مَنْ تشترى منه : « خذ هذه الورقة النقدية القديمة التى تدفعها لى ، واستبدلها لى بورقة جديدة » .

فما دامت النقود سوف تُدفع ؛ فأنت تريد أن تتخلص من النقود القديمة ؛ وتفعل ذلك وأنت مُرتاح ، وبذلك يمكننا أن نفهم معنى :

﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف]

على أنها بضَاعة رديئة .

فكأن الضُّرَّ الذى أصابهم جعلهم عاجزين عن دفع الأثمان للمَيْرة التى سوف يأخذونها ، مثل الأثمان السابقة التى تميزت بالجودة .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنهم يرجونه أن يُوفِّى لهم الكيل ولا ينقصه ؛ إنْ كان ما جاءوا به من أثمان لا يُوفى ما تساويه المَيْرة ، وطالبوه أن يعتبر تلك التَّوْفية فى الكَيْل صدقة .

وبذلك رَدُّوه إلى ثمن أعلى مما حملوه من أثمان ، وفوق قدرة البشر على الدَّفْع ؛ لأن الصدقة إنما يُثيب عليها الحق سبحانه وتعالى.

ولقائل أن يسأل : أليسوا أبناء نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة ؟

نقول : إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختصَّ به الحق سبحانه آل محمد ﷺ ، وهو أمر خاص بأمة محمد ﷺ ، فقد قال ﷺ : « إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس »[1] .

وانظر إلى ما فعلته الترقيقات التي قالوها ؛ نظر إليهم يوسف عليه السلام وتبسم ، ولما تبسَّم ظهرت ثناياه[2] ، وهي ثنايا مميزة عن ثنايا جميع مَنْ رآوه .

وجاء الحق سبحانه بما قاله :

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

ومجيء هذا القول في صيغة السؤال ؛ يدفعهم إلى التأمل والتدقيق ؛ لمعرفة شخصية المُتحدِّث .

ثم يأتي التلطُّف الجميل منه حين يضيف :

﴿ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يوسف]

وفي هذا القول ما يلتمس لهم به العُذْر بالجهل ، ولم يتحدث

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٦٦) ، ومسلم في صحيحه (١٠٧٢) كتاب الزكاة من حديث عبدالمطلب بن ربيعة بلفظ : « الا إن الصدقة لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس » .

(٢) ثنايا الإنسان في فمه هي : الأسنان الأربع التي في مُقدَّم فمه : ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل . [لسان العرب ـ مادة : ثني] .

إليـهم بعزَّة الكبـرياء ، وغـرور المكانة التى وصل إليـها ، وهدفـه أن يخفف عنهم صَدْمة المفاجأة ، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم.

وهذا مثلمـا يكون أحدهم قـد أخطأ فى حقِّك قـديماً بسلوك غـير مقبول ، ولكن الأيام أزالتْ مرارتك من سلوكه ، فتُذكِّره بما فعله قديماً وأنت تقول له : إن فعلك هذا قد صدر منك أيام طَيْشك ، لكنك الآن قد وصلتَ إلى درجة التعقُّل وفَهْم الأمور .

وقـول يوسف عليـه السـلام لهم هذا الأمـر بهـذه الصـيـغـة من التلطُّف ، إنما يعبر أيضاً عن تأثُّره بشكواهم ، ثم تبسُّمه لهم ، وظهور ثناياه دفـعهم إلى تذكُّره[1] ، ودار بينهم وبينه الحـوار الذى جاء فى الآية التالية :

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ[2] ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

وهكذا انتبهوا إلى شخصية يوسف وتعرَّفوا عليه ، وقالوا :

﴿ أَئِنَّكَ لأنتَ يُوسُفُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) كـان يوسف عليه السـلام إذا تبسَّم كان ثناياه اللؤلؤ المـنظوم ، قال ابن عـبـاس : تبـسَّم يوسف ، فشـبَّهوه بيـوسف فقالوا له على جـهة الاستفـهام : ﴿ أَئِنَّكَ لأنتَ يُوسُفُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف] . وفى هذا روايات أخرى ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٩١) .

(٢) مَنَّ عليه : أنعم عليـه وأحسن إليه . قـال القرطبى فى تفسيـره (٥/٣٥٩١) : « أى : قد مَنَّ الله علينا بالنجاة والملك » بتصرف .

وجاء قولهم بأسلوب الاستفهام التقريريّ الذى أكّدوه بـ « إنْ » و « اللام » ، وقد قالوا ذلك بلهجة مُمتلئة بالفرح والتعجُّب بنجاحهم فى التحسُّس الذى أوصاهم به أبوهم .

فَردّ عليهم :

﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَـٰذَا أَخِي .. ۝٩٠ ﴾ [يوسف]

وبطبيعة الحال هم يعرفون أخَ يوسف « بنيامين » ، وجاء ذكْر يوسف له هنا دليلاً على أن بنيامين قد دخل معه فى النعمة ، وأن الحق سبحانه قد أعزّ الاثنين .

ويجيء شكْر يوسف لله على نعمته فى قوله :

﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝٩٠ ﴾ [يوسف]

وجاء يوسف بهذا القول الذى يعرض القضية العامة التى تنفعهم كإخوة له ، وتنفع أىّ سامع لها وكل مَنْ يتلوها ، وقد قالها يوسف عليه السلام بعد بيِّنة من واقع أحداث مرّتْ به بَدْءً من الرُّؤيا إلى هذا الموقف .

فهو كلام عليه دليل من واقع مُعَاش ، فقد مَنَّ الله على يوسف وأخيه مما ابْتُلِيا به واجتمعا من بعد الفُرْقة ، وعلَّل يوسف ذلك بالقول :

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ .. ۝٩٠ ﴾ [يوسف]

اى : مَنْ يجعل بينه وبين معصية الله وقاية ، ويخشى صفات

الجلال ، ويتبع منهجه سبحانه ، ويصبر على ما أصابه ، ولا تفتُر همَّته عن عبادة الله طاعة ، ويتجنب كل المعاصى مهما زُيِّنَتْ له .

فسبحانه وتعالى لا يُضيع أجر المحسنين الذين يتقونه ، وصاروا بتقواهم مُستحقِّين لرحمته ، وإحسانه فى الدنيا والآخرة .

ويأتى قول الحق سبحانه بعد ذلك ليحمل لنا ما قاله إخوة يوسف فى هذا الموقف :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) ﴾

و « تالله » قَسَم بالله .

و ﴿ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا .. (٩١) ﴾ [يوسف]

أى : خصَّك بشىء فوق ما خَصَّ به الآخرين ، وهو لم يُؤثِرْك بظلم لغيرك ، ولكنك كنت تستحق ما آثرك به من المُلْك وعلو الشأن والمكانة .

وهكذا صدَّق إخوة يوسف على ما قاله يوسف ، واعترفوا بخطيئتهم ، حين حاولوا أن يكونوا مُقرَّبين مثله عند أبيهم ، ولكنك يا يوسف وصلت إلى أن تصير مُقرباً مُقدَّماً عند ربِّ أبينا وربِّ العالمين.

والشأن والحال التى كنا فيها تؤكد أننا كنا خاطئين ، ولا بُدَّ أن ننتبه إلى الفَرْق بين « خاطئين » و « مخطئين » .

والعزيز قد قال لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ لها « كنت من المخطئين » فالمادة واحدة هى : «الخاء » و « الطاء » و «الهمزة » ، ولكن المعنى يختلف ، فالخاطئ هو مَنْ يعلم منطقة الصواب ويتعدَّاها ، أما المُخْطِئ فهو مَنْ لم يذهب إلى الصواب ؛ لأنه لا يعرف مكانه أو طريقه إليه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام لإخوته بعد أن أقرُّوا بالخطأ :

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾

والتثريب هو اللوم العنيف ، وهو مأخوذ من الثَّرْب ؛ فحين يذبحون ذبيحة ، ويُخرِجون أمعاءها يجدون حول الأمعاء دُهْناً كثيفاً ؛ هذا الدُّهْن يُسمَّى ثَرْب .

أما إن كانت هزيلة ، ولم تتغذَّ جيداً ، فأمعاؤها تخرج وقد ذاب من عليه هذا الثَّرْب .

والتثريب يعنى : أن اللوم العنيف قد أذابَ الشحم من لحمه ، وجعل دمه ينزّ ، ويكاد أن يصل بالإنسان إلى أن ينزل به ويسلّه .

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إذا زنت أمةُ أحدكم فتبيَّن[1] زناها فليجلدها الحدّ ، ولا يُثرِّب عليها ، ثم إن زنت فليجلدها الحد ، ولا يُثرِّب عليها ، ثم إنْ زنت الثالثة فتبيَّن زِناها فليبعْها ، ولو بحبل من شعر »[2] .

أى : لا يقولن لها : يا مَنْ فعلتِ كذا وكذا ، بل فليعاقبها بالعقاب الذى أنزله الله لمثل هذه الجريمة ؛ فإن لم ترتدع عن الفعل فلْيبعْها ، وهكذا نفهم أن التثريب أو اللوم العنيف قد يُولِّد العناد .

وقال يوسف عليه السلام :

﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف]

ولقائل أن يتساءل : ولماذا قال يوسف ذلك ؛ وقد يكونون قد استغفروا الله من قبل ؟

ونقول : إن دعوة يوسف بالمغفرة لهم جاءت في حدود معرفته، ولتصفية النفوس مما شابها بهذا اللقاء .

وقوله :

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف]

هو فَهْمٌ لحقيقة أن أىَّ رحمة فى العالم ، أو من أى أحد إنما هى مُستمدَّة من رحمته سبحانه .

---

(١) قال النووى فى شرحه لمسلم (٢٢٣/١١) : « معنى تبيُّن زناها تحققه ، إما بالبينة ، وإما برؤية ، أو علم عند من يُجوِّز القضاء بالعلم فى الحدود » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد قال يوسف ذلك وهو واثق من إجابة دعوته ، لأنه قد غفر لهم خطأهم القديم وعفَا عنهم ؛ والله أَوْلَى منه بالعفو عنهم .

ثم يعود الحديث بينه وبينهم إلى والدهم ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف لإخوته ، وهو الذى علِم ما حدث لأبيه بعد فراقه له :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وكان يوسف عليه السلام ، قد علِم أن أباه يربط عينيه من الحزن ، وكاد أن يفقد بصره ، فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذى كان يلبسه إلى أبيه .

وتقول كتب السِّير أن أخاه الأكبر الذى رفض أن يبرح مصر ، وقال :

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف]

قد قال ليوسف :

« يـأيها العزيز إننى أنا الذى حملتُ القميص بدم كذب إلى أبى ، فدعْنى أحمل هذا القميص لأبى ، كى تمحو هذه تلك »[1] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٥٩٣) : « حكى السدى أن الذى حمل قميصه يهوذا . قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته ، وأنا الذى أحمله الآن لأسرّه ، وليعود إليه بصره ، فحمله » .

وقال يوسف عن فعل القميص مع الأب :

﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

و نلحظ أنه لم يَقُلْ : « وجه أبيكم » .

وفى قوله :

﴿ وَجْهِ أَبِي .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

إشارة إلى الحنان الأبوى الذى فقدوه منذ أن غاب يوسف ، فغرق والده فى الحزن .

و .

﴿ يَأْتِ بَصِيراً .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

أى : يرتدّ إليه بصره ، أو يراه أمامه سليماً .

ويضيف يوسف :

﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) ﴾ [يوسف]

هذا تعبير قُرآنى دقيق ، أن يُحضروا معهم كل مَنْ يَمُتُّ بصلة قرابة لهم أو يعمل معهم [١] ، ولم يَقُلْ يوسف « بآلكم » حتى لا يأتوا بالأعيان فقط .

ونلحظ أنه لم يذكر والده فى أمر يوسف لإخوته أن يأتوه بكل مَنْ يمُتُّ لهم بصلة قُرْبى ؛ لأن فى مثل هذا الأمر - من موقع عزيز مصر - إجباراً للأب على المجىء ، وهو يُجِلُّ أباه عن ذلك .

---

(١) قال مسروق : كانوا ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وامرأة . القرطبى فى تفسيره (٣٥٩٣/٥) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ[1] يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ[2] ﴿٩٤﴾ ﴾

و « فصلت » تدل على شيء كان مُلْتصقاً بشيء آخر وانفصل عنه ، وفَصلت العِيرُ . أي : خرجتْ من المدينة وتجاوزتْها ؛ لتسير في رحلتها ، والمقصود خروج القافلة من حدود مصر قاصدةً مكان يعقوب عليه السلام .

وهنا قال يعقوب لمن كانوا حاضرين معه من الأحفاد وأبناء الأبناء :

﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [يوسف]

والمعروف أن القميص الذي أرسله مع أخيه الأكبر يحمل رائحة يوسف ، لكن الذين حول يعقوب من أقربائه لم يُصدِّقوا قوله ، فأضاف :

﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يوسف]

أي : لولا اتهامكم لي بالخَرف ، لأن التفنيد هو الخرف[3] .

(١) ريح يوسف : أي ريحاً تحمل رائحته ، أو الريح بمعنى الرائحة أي رائحته . [القاموس القويم ١/ ٢٨٠] .

(٢) فَنَد : ضعف رأيه من الهرم ، أو كذب عامداً ، وأتى بالباطل . وفنَّد رأيه : أضعفه وأبطله ، أو بيَّن ما فيه من الخطأ . [القاموس القويم ٢/ ٨٩] .

(٣) الخرف : فساد العقل من الكِبَر . [لسان العرب ـ مادة : خرف] .

ومن العجيب أننا فى أيامنا هذه نجد العلم وقد أثبت أن صُورَ المرائى والأصوات ، توجد لها آثار فى الجو ، رغم ما يُخيَّل للإنسان أنها تلاشتْ .

ويحاول العلم بوسائل من الأشعة أن يكشف صورة أىِّ جماعة كانت تجلس فى مكان ما ، ثم رحلتْ عنه منذ ساعة أو ساعتين ، ممَّا يدلُّ على أن الصور لها نضح من شعاع وظلال يظل بالمكان لفترة قبل أن يضيع .

وكذلك الأصوات ؛ فالعلماء يحاولون استرداد أصوات مَنْ رحلوا ؛ ويقولون : لا شيءَ يضيع فى الكون ، بل كل ما وُجِد فيه محفوظ بشكل أو بآخر .

والرائحة أيضاً لا تضيع ، بدليل أن الكلب يشُمُّ الريح من على مسافات بعيدة ، ويميز الآن المخدرات من رائحتها ؛ ولذلك تنتشر الكلاب المدرَّبة فى المطارات وعلى الحدود ؛ لتكشف أىَّ محاولة لتهريب المخدرات .

وإذا كان الحيوان المخلوق بقدرة الله قادراً على التقاط الرائحة من بين آلاف الروائح ، وإذا كان العلم الموهوب من الله للبشر ؛ يبحث الآن فى كيفية استحضار الصورة واسترداد الصوت من الفضاء المحيط بالإنسان ؛ فعلينا أن ندرك أن العيرَ عندما خرجتْ من أسوار المدينة ؛ وأخذتْ طريقها إلى الموقع الذى يعيش فيه يعقوب عليه السلام ؛ استطاع يعقوبُ بقدرة الله أن يَشُمَّ رائحة يوسف ؛ تلك التى يحملها قميصه القادم مع القافلة .

ولسائل أن يقول : ولماذا ارتبط تنسُّم يعقوب لرائحة يوسف بخروج العير من مصر ، وتواجدها على الطريق إلى موطن يعقوب ؟

نقول : لأن العيرَ لحظة تواجدها فى المدينة تكون رائحة قميص يوسف مُخْتلطة بغيرها من الروائح ؛ فهناك الكثير من الروائح الأخرى داخل أى مدينة ، ويصعب نفاذ رائحة بعينها لتغلب على كل الروائح ؛ ويختلف الأمر فى الخلاء ؛ حيث يمكن أن تمشى هَبَّة الرائحة دون أن يعترضها شىء .

وبذلك نؤمن أن كل شىء فى الكون محفوظ ولا يضيع ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ ﴾ [الانفطار]

وكل ما يصدر منك مُسجَّل عليك ؛ ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة لتقرأه ، وتكون على نفسك حسيباً .

ويردُّ مَنْ بقى من أهل يعقوب معه على قوله بأنه يجد رِيحَ يوسف :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ۝ ﴾

وكأنهم قد ملُّوا حديثه عن يوسف ؛ وأعرضوا عن كلامه قائلين له : إلى متى ستظل على ضلالك ، وهم لا يعنُون الضلال(١) بمعنى الخروج عن المنهج ، ولكنهم يعنُونَ الضلال بمعنى الجزئيات التى لا علاقة لها بالتديُّن من محبة شديدة ليوسف ، وتعلُّق به ، والتمنِّى لعودته ، وكثرة الحديث عنه ، وتوقُّع لقائه ، وهم الذين ظنُّوا أن يوسف قد مات .

---

(١) الضلال هنا يعني شدة الانشغال بالمحبوب وكثرة السؤال عنه والبحث المتلاحق مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الضحى].

ويأتى البشير ليعقوب ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وحين حضر البشير[1] ، وهو كما تقول الروايات كبير الإخوة ؛ ويُقال أيضاً : إنه يهوذا ؛ وهو مَنْ رفض أن يغادر مصر إلا بعد أن يأذن له والده ، أو يأتى حَلٌّ من السماء لمشكلة بقاء بنيامين فى مصر ، بعد اتهام أعوان العزيز له بالسرقة ، طبقاً لما أراده يوسف ليستبقى شقيقه معه .

ولما جاء هذا البشير ومعه قميص يوسف ؛ فألقاه على وجه الأب تنفيذاً لأمر يوسف عليه السلام .

وبذلك زال سبب بكاء يعقوب ، وفَرِح يعقوب فرحاً شديداً ؛ لأنه فى أيام حزنه على يوسف ، وابيضاض عينيه من كثرة البكاء حدَّثه قلبه بالإلهام من الله أن يوسف ما زال حياً ؛ وكان البكاء عليه من بعد ذلك هو بكاء من فَرْط الشوق لرؤية ابنه .

---

(١) البشير : الذي يُبشِّر القوم بالخبر السارّ . قيل : هو شمعون . وقيل : يهوذا . قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به مُلطَخاً بالدم . قاله ابن عباس . وعن السدى أنه قال لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص التَّرْحة (الحزن) فدعونى أذهب إليه بقميص الفرحة . [تفسير القرطبى ٣٥٩٦/٥] .

وكذلك قد يكون يوسف قد علم بالوحى من الله أن إلقاء القميص على وجه أبيه يردُّ إليه بصره ، بإذن من الحق سبحانه وتعالى ، فضلاً عن أن الفرح له آثار نفسية تنعكس على الحالة الصحية ، وهكذا تجلَّتْ انتصارات الحقِّ والنبوة .

وقال يعقوب عليه السلام :

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ ذلك إذلالاً لهم ، بل ليعطى الثقة والتوثيق لأخبار كل نبى ، وأن الواقع قد أيَّد الكلام الذى قاله لهم :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا[1] مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف]

فإذا جاءكم خبر من معصوم ؛ إياكم أن تقفوا بعقولكم فيه ؛ لأن العقول تأخذ مُدْركات الأشياء على قَدْرها ، وهناك أشياء فوق مُدْركات العقول .

وحين يُحدِّثكم معصوم عن ما فوق مُدْركات عقولكم إياكم أن تُكذِّبوه ؛ سواء فهمتم ما حدَّثكم عنه ، أو لم تستوعبوا حديثه عَمَّا فوق مُدْركات العقول .

---

(١) تحسس الشيء وتحسس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف] . أي : تتبعوا أخبارهما و ابحثوا عنهما بعناية شديدة . [القاموس القويم ١/١٥٤] .

راجعه على الأصل وخرج احاديثه فضيلة الشيخ محمد السنراوى المستشار بالأزهر والأستاذ عادل ابو المعاطى .

وهنا يُقِر إخوة يوسف بذنوبهم ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

وهم هنا يُقِرُّون بالذنب ، ويُحدِّثون والدهم بنداء الأبوة كى يستغفر لهم ما ارتكبوه من ذنوب كثيرة ، فقد آذَوْا أباهم وجعلوه حزيناً ، ولا يسقط مثل هذا الذنب إلا بأن يُقِرَّ به مَنْ فعله ، ونلحظ أنهم قالوا :

﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنهم كانوا يعلمون الصواب ، ولم يفعلوه .

ويأتى الحق سبحانه بما قاله يعقوب :

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

ونلحظ أن يوسف قد قال لهم من قبل :

﴿ لا تَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف]

لكن والدهم هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول :

---

(١) ثربه : لامه وعتب عليه . وثرَّبه بالتضعيف : أكثر لومه وعيَّره بذنبه وأنَّبه على سوء فعله .
[القاموس القويم ١/١٠٦] .

﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى .. (٩٨) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ : « سـأستـغفـر لكم ربى » ، وهذا يدل على أن الكبـار يحتاجون لوقت أكبر من وقت الشباب ؛ لذلك أجَّل يعقوب الاسـتغفار لما بعد .

والشيخ الألوسى فى تفسيره يقول :

« إنما كان ذلك لأن مطلوبات البـر من الأخ لإخوته غير مطلوبات البـر من ابـن لأبيـه ؛ لأن الأخ ليس له نفس حـق الأب ؛ لذلك يكون غضب الأب أشدَّ من غضب الأخ » .

ثم إن ذنوبهم هنا هى من الذنوب الكبيرة التى مـرّ عليهـا وعلى تأثيـرها على الأب زمن طويل . ويقال : إن يعـقوب علـيه السـلام قد أخَّر الاستغفار لهم إلى السَّحَر ، لأن الدعاء فيه مُستجَاب .

وينقلنا الحق سـبحـانه من بعد ذلك إلى لحظة اللقـاء بين يوسف عليـه السلام وأهله كلهم ، بعـد أن انـتقلوا إلى حيث يعـيش يوسف ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ[1] إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾

ونعلم أن الجَدَّ إسـحق لم يكُنْ موجـوداً ، وكـانوا يُغلِّبـون جهـة الأُبوة على جهة الأمـومة ، ودخلت معهم الخالة ؛ لأن الأم كـانت غير موجودة[2] .

---

(١) آوى : ضمَّه إليه وأسكنه عنده أو أنزله فى بيت . [القاموس القويم ١/ ٤٥] .

(٢) أم يوسف وبنيامين هى « راحيل » ، وقد ماتت فى نفـاس بنيامين . راجع تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٥٩٨ .

ويبدو أن يوسف قد استقبلهم عند دخولهم إلى مصر استقبال العظماء ، فاستقبلهم خارج البلد مرة ليريحهم من عناء السفر ويستقبلهم وجهاء البلد وأعيانهم ؛ وهذا هو الدخول الأول الذى آوى فيه أبويْه .

ثم دخل بهم الدخول الثانى إلى البلد بدليل أنه قال :

﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يوسف]

ففى الآية دخولان .

وقول الحق سبحانه :

﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ .. ﴿٩٩﴾ ﴾ [يوسف]

يدل على حرارة اللقاء لمغتربين يجمعهم حنان ، فالأب كان يشتاق لرؤية ابنه ، ولا بُدَّ أنه قد سمع من إخوته عن مكانته ومنزلته ، والابن كان مُتشوِّقاً للقاء أبيه .

وانفعالات اللقاء عادة تُترك لعواطف البشر ، ولا تقنينَ لها ، فهى انفعالات خاصة تكون مزيجاً من الود ، ومن المحبة ، ومن الاحترام ، ومن غير ذلك .

فهناك مَنْ تلقاه وتكتفى بأن تُسلِّم عليه مُصَافحة ، وآخر تلتقى به ويغلبُك شوقُك فتحتضنه ، وتقول ما شئتَ من ألفاظ الترحيب .

كل تلك الانفعالات بلا تقنين عباديّ ، بدليل أن يوسف عليه السلام آوى إليه أبويه ، وأخذهما فى حضنه .

والمثل من حياة رسولنا ﷺ في سياق غزوة بدر حيث كان يستعرض المقاتلين ، وكان في يده ﷺ قدح يعدل به الصفوف ، فمرَّ بسواد بن غزية من بني عدى بن النجار[1] ، وهو مستنصل[2] عن الصف - أي خارج عنه ، مما جعل الصف على غير استواء - فطعن رسول الله ﷺ في بطنه بالقدح وقال له : « استَوِ يا سواد » .

فقال سواد : أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدْني[3] .

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال ﷺ : « استقد » . فاعتنقه سَواد وقبَّل بطنه .

فقال ﷺ : « ما حملك على هذا يا سواد ؟ » .

قال : يا رسولَ الله ، قد حضر ما ترى - يقصد الحرب - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جِلْدى جلدك . فدعا له رسول الله ﷺ بالخير[4] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) انظر ترجمة سواد بن غزية في « الإصابة في تمييز الصحابة » (٣/١٤٨) .

(٢) تنصلْت الشيء واستنصلته إذا استخرجته . [لسان العرب - مادة : نصل] .

(٣) القَوَد : القصاص . وإذا أتى إنسان إلى آخر أمراً فانتقم منه بمثلها قيل : استقادها منه . [لسان العرب - مادة : قود] .

(٤) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢/٦٢٦) طبعة المكتبة العلمية - بيروت ، وكذا ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية ٣/٢٧١ » .